

كلية الآداب والحضارة والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ

السنة الثالثة حضارة إسلامية

مقياس الحضارة الإسلامية ومؤسساتها

تتمة المحاضرات المقدمة

المحاضرة الأولى: ملامح عن المؤسسة العسكرية بالمشرق في صدر الإسلام

المحاضرة الثانية: القضاء بالمغرب . العصر الزياني نموذجاً

المحاضرة الثالثة: دور القيروان في حضارة المغرب خلال العصر الوسيط-العلوم الشرعية

نموذجاً-

المحاضرة الرابعة: المدارس خلال العصر الوسيط

المحاضرة الأولى

ملامح عن المؤسسة العسكرية بالمشرق في صدر الإسلام

نظام التجنيد والسجلات العسكرية:

ظل التجنيد في عهد أبي بكر على النهج الذي كان معمولاً به في عهد النبي وهو مبدأ التطوع والانتداب المبني على نية الجهاد في سبيل الله، وكتب أبو بكر إلى قواده عند فتح العراق والشام «أن يأذنوا لمن شاء بالرجوع، ولا يستفتحوا بمتكأه، وأن يستنفروا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد الرسول».

ثم عمد الخليفة عمر إلى تنظيم الجيش الإسلامي بأن وضع "الديوان" فكتب أسماء المسلمين جميعاً في دفاتر ورتب لهم فيها أرزاقهم السنوية، وجعلهم مرتين حسب فرايتهم من الرسول والسبق في الإسلام والبلاء في الجهاد، وجعل الأرزاق السنوية تتراوح بين خمسة آلاف درهم وألف درهم وأفراد للجند دفاتر خاصة تسمى (ديوان الجند) يدون فيها اسم الجندي مع نسبه وقبيلته وبيان قده ولونه وملاحه وسائر ما يتميز به عن غيره لئلا تتفق الأسماء وليسهل استدعاؤه. وقسم عمر الجيش على الوجه الآتي:

1- الجنود النظاميون ولهم ديوان خاص، ويصرف لهم عطاؤهم من بيت المال فوق أسهمهم من المغانم، وهؤلاء كانوا موقوفين للجهاد لا يشتغلون بغيره من تجارة أو زراعة أو غيرها، وإن فعلوا ذلك عوقبوا.

2- المتطوعون الذين يلحقون بالجيش من البوادي والأمصار، والبلاد المفتوحة. وهؤلاء كانوا يجندون وقت الحرب ويسرحون وقت السلم، وحظهم من الجهاد هو سهمانهم فقط، ولا يمعنهم الخليفة من زراعة الأرض أو الاشتغال بأية حرفة أخرى.

وفي عهد الدولة الأموية ضعف عنصر الإلزام في التجنيد بسبب الحروب الأهلية التي فتزت بسببها حماسة الجند للقتال لعدم إيمانهم بعدالة القضية التي يجارون من أجلها ولعدم وضوح مشروعيتها في نظرهم، وأدى ذلك إلى أن أصبح المال أداة التجنيد في الدولة الأموية.

وكان التجنيد في عهد الدولة العباسية خاضعا للمال، فصارت الجندية مهنة مربحة، وبسبب الحروب الأهلية بين الأخويين الأمين والمأمون ضعفت روح الجندية وأصبح اجنود يبيعون دماءهم بأثمان باهضة لمن يقدر على دفعها.

نظام إنهاء الخدمة العسكرية (التسريح):

في عهد أبي بكر كانت ألوية الجيش منتشرة في أنحاء الجزيرة المختلفة لإخضاع الثائرين، فلما ملّ القتال جنود (عكرمة) باليمن لبعد الدار وكثرة المشقة سرحهم أبو بكر واستبدل بهم غيرهم، ومن ثم سمي الجيش الجديد (جيش البدال) وفي عهد عمر انتشرت جنوده في سواد العراق ومروج الشام، فقرر الخليفة ألا يمكث الجنود في أكثر من أربعة أشهر، ثم يستقدمون ويرسل مكائهم آخرون، وكذلك نظم الغزو بين أهل البصرة والكوفة، فكان الجندي يأتي دوره في الغزو على فترات معينة كل أربعة شهور، كما كان الجنود المرابطون بالإسكندرية يستبدل بهم غيرهم كل عدة شهور.

أما إنهاء الخدمة بالتسريح النهائي فيظهر أن الجند النظاميين كانوا يسرحون عند بلوغ حد الشيخوخة، أما المتطوعون فإنهم كانوا يخرجون للغزو أو الرباط، فإذا حل الشتاء أو هجم البرد تفرقوا إلى بلادهم، حيث يريحون دوابهم ويستريحون، وكان عمر ينصح لقواده أن يفرقوا في الناس أرزاقهم قبل أن يتفرقوا في مشاتهم.

الجيش الدائم:

اعتاد العرب أن يقيموا في البلاد التي يفتحونها مراكز حربية ثابتة في التخوم المهمة التي تحب حمايتها، وقد أقام الخليفة عمر في الشام أربعة مراكز حربية و في مصر مركز الفسطاط وزود الإسكندرية بحامية قوية، هذا بالإضافة إلى البصرة والكوفة. وقد أقيمت هذه المعسكرات في مواقع استراتيجية مهمة على أبواب الطرق المؤدية للبلاد المفتوحة، لتكون مقرا للقوات المحاربة الثابتة التي يتألف من مجموعها الجيش الإسلامي،

يراقبهم الخليفة ويبيت فيهم عيونهم فيأتونه بأخبارهم، وكان يشترك في هذه المعسكرات ألا تفصل عنه بالمياه، ليتمكن من زيارتها أنى شاء، وليرى مدى استعدادها لمواجهة الأعداء، وتحكمها في الطرق المؤدية لداخل البلاد.

وروى الطبري أنه كان بالكوفة أربعة آلاف فارس لنجدة المسلمين بها إذا نابتهم نائبة، إلى أن يستعد الناس ويلحقوا بهم، ثم تتوالى الإمدادات بعدهم، كما ذكر أن المعسكرات الأخرى كان بكل منها أربعة آلاف فارس على نمط الكوفة .

وقدر عدد الجيش الدائم في عهد عمر باثنين وثلاثين ألفا من الفرسان المرابطة عدا المشاة والمتطوعة، وكان لدى الخليفة المنصور 120 ألفا مفرقين في الأقاليم كما كان جيش المأمون بالعراق يتألف من 125 ألفا.

تشكيلات الجيش:

كانت القوات منذ عهد النبوة توزع على أساس قبلي، وأول تنظيم عرف في هذا العهد قرره الرسول حينما اختار من أصحابه ليلة العقبة الثانية اثني عشر نقيبا ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس في نشر دعوته الجديدة، وليكونوا نواة صالحة لجيشه المرتقب، فلما كثر أصحابه واشتبكوا مع المشركين في عدة معارك قسمهم عرفات وجعل على كل عشرة منهم عريفا، فقد روى الطبري في حديثه عن القادسية أن سعدا عرف العرفاء، فجعل على كل عشرة عريفا، كما كانت العرفات أزمان النبي (ص)

واستمر هذا التنظيم حتى أوائل خلافة عمر فقد كتب إلى قائده سعد بن أبي وقاص قبيل دفعة وقعة القادسية يقول: "إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس، وعرف عليهم، وأمر على أجنادهم، ومر رؤساء القوم فليشهدوا وقدرهم وهم شهود، واجعل على الرايات رجالا من أهل السابقة".

ويفهم من ذلك أن العريف كان على عشرة من الجنود، وأن الأمير فوق العريف، وأن رؤساء القوم هم زعماء القبائل.

وفي معركة اليرموك نظم خالد-لأول مرة- الجيش في تشكيل "الكراديس" متأثرا على ما يبدو بالنظام البيزنطي، ويعتبر ذلك مرحلة انتقال هامة في تشكيل الجيش الإسلامي، من الأساس القبلي إلى أساس

تنظيمي له تركيب متجانس يضم الفرسان والرماة من وحدات متساوية في القوة (هي الكراديس) دون النظر إلى أصل أو نسب. أضف إلى ذلك اختيار القادة الأكفاء لقيادة الكراديس.

ونظم خالد الجيش في 38 كردوسا تبلغ قوة كل منها حوالي 1000 من المقاتلين، وجعل على كل قسم من الجيش بطلا مشهورا من أبطال المسلمين وهم الذين يسمون "أمراء التعبئة" فجعل أبا عبيدة أميرا على كراديس القلب وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على الميمنة، وجعل على الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وكذلك اختار أمراء الكراديس من الأبطال البارزين أمثال القعقاع بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الأزور وغيرهم.

للتفصيل ينظر

ابن الأثير: الكامل

الطبري: تاريخ الرسل والملوك

عبد الرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام

الحضارة العربية الإسلامية

المحاضرة الثانية

القضاء بالمغرب . العصر الزياني نموذجاً .

يعد القضاء من أهم خطط الدولة الدينية والسياسية، بوصفه أحد الفروع الرئيسية للإمامة الكبرى، ونظراً لأهميته الاجتماعية وكونه ركناً أساسياً في دعم واستمرار أي كيان سياسي عند قيامه بدوره المنوط به، وهو ما أكدت عليه كتب التراث السياسي بإقامة "العدل"، الذي يجسده الحاكم الأول للبلاد، ويياشره عماله في قسم هام منه عبر هذا الجهاز الذي يستمد سلطته من الحاكم مباشرة.

أولاً: قضاء حضرة تلمسان وخارجها

أ- قضاء حضرة تلمسان

يعد القائم بهذه الوظيفة في المغرب رئيساً للقضاة بحاضرة الدولة، ويعادله في المغرب والأندلس لقب قاضي الجماعة، وفي المشرق قاضي القضاة.

1- معايير تولي قضاء الحضرة في تلمسان:

أحاول إبراز المرتكزات التي استندت إليها السلطة الزيانية في توليه قضاء الحضرة، هل خضعت لعوامل تزكي قوة السلطة وحكمتها من حيث اختيارها لفقهاء توفرت فيهم معايير علمية وأخلاقية سامية، صنعوا من خلالها جزءاً من مجد هذه السلطة في تجسيدهم للعدل والقيام بما أسند إليهم من مهام على أحسن وجه، انطلاقاً من هيبة مؤسسة القضاء، أم أنها خضعت لعوامل ذاتية تسمح بالحديث عن استغلال هذه المؤسسة من طرف أفراد أو مجموعات.

كان تعين قضاة الحضرة في تلمسان يتم بدون تحديد فترة ولاية القاضي، وأكثر من ذلك أن بعض القضاة تواصلت ولايته عند أكثر من سلطان، هذا ما يقود إلى طرح المعايير التي تحكمت في اختيار السلطة لهؤلاء القضاة؟

يتم الكشف عن ذلك بشكل أساسي انطلاقاً من محاولة المطابقة بين المواصفات التي حددتها كتب الأحكام السلطانية والفقهاء والمعايير التي توفرت في قضاة حضرة تلمسان.

-المكانة العلمية: إضافة إلى الشروط الأساسية المعتبرة فيمن يتولى القضاء والمتمثلة في: الإسلام، العقل، الذكورية، الحرية، البلوغ، سلامة حواس السمع والبصر واللسان-والتي كان توفرها ميسراً، ولم يعدم توفرها في أي قاضي من قضاة حضرة تلمسان- عدّ العلم مرتكزاً أساسياً في متولي هذه الخطة.

وقد اعتبر شرط العلم هو "علم ما يتولاه" حتى وإن كان مقلداً، وفصله بعضهم، بمعرفة الفقه والسنة والآثار وعلم الوثائق والعربية وهو ما عبر عنه بشكل إجمالي السلطان أبو حمو موسى الثاني بالعلم "بتنفيذ الأحكام" والتفريق بين "الحلال والحرام" وأضيف شرط كماله للعلم والمتمثل في الفطنة والذكاء المعتدل والتأني في الأحكام.

ويمكن الحديث عن المكانة العلمية للقضاة من خلال بعض النماذج:

أبو عبد الله بن أبي عمرو التميمي الذي عدّ من كبار فقهاء عصره على مستوى الإفتاء والتأليف والتدريس، وأبو عبد الله بن هدية الذي وإن لم يعد من كبار فقهاء عصره، فقد كان له «نفوذ في الأحكام وبصر بالوثائق»، وكان له باع في علوم اللسان والأدب والتاريخ، كما صنف في عدة علوم وكان له دور هام في التدريس بتلمسان وعدّ بشهادة أحد معاصريه «أصيل الرأي مصيب العقل... كبير قطره في عصره نباهة»، كما كان أبو العباس بن المشوش من كبار الفقهاء، وقد كان أبو عثمان العقباني من كبار فقهاء تلمسان على مستوى التأليف والإفتاء، كمجتهد في إطار المذهب المالكي والتدريس إلى جانب

-المكانة الأخلاقية: تعد "العدالة" من الشروط الأساسية في متولي القضاء والعدالة هي "البراءة من

كل جرح."

وقد أبدى السلطان أبو حمو موسى الثاني أهمية خاصة للضوابط الأخلاقية التي يجب أن تتوفر في

قاضي الحضرة بداية من التأني في اختياره واختباره قبل ولاية وبعدها بالتأكد من :

أ-عدم سعية وحرصه على تولى هذه الخطة وحينها يتم جبره عليها.

ب-زهده في الدنيا الذي يغنيه عن التأثر بمن حوله وبما في أيديهم.

ج-اختباره بعد تقريبه في طلب رخصة شرعية على سبيل أنها من ضرورات السلطان فإن التمس حكما خارج المذهب المعتمد لديه وفي بلده وهو المذهب المالكي فذلك تجريح في دينه، وقد يقود للتساهل مع غيره أيضا لغرض دنيوي.

د-النظر إلى سلوكه مع السلطان قبل وبعد توليته.

مما يزيكه لدى السلطان أو يكشف عن معدنه في الرغبة في هذا المنصب ومحاولة التقرب من السلطان بشكل أكثر وتحقيق ما يمكنه من نفوذ من وراء هذا المنصب.

وتطرق أبو حمو موسى الثاني لهذا الموضوع في محل آخر موصيا ولي عهده قائلا «أما قضاتك فيجب عليك أن تتخذ قاضيا من فقهاءك أفضلهم في متانة الدين، وأرغبهم في مصالح المسلمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يسمح لظلامه ظالم، ولا يفتر برشا ولا يعلق دلوه منه برشا يساوي بين الشريف والمشروف، والقوى والضعيف... قاضيا بالعدل موجزا في الفضل والفصل»، وهو ما يؤكد على الأهمية التي أولها لهذه الخطة التي بواسطتها تحقق القاعدة الثالثة من "قواعد الملك، وأركانها وما يحتاج الملك إليه في قوام سلطانه، وهي قاعدة العدل.

بالنظر للمعايير الأخلاقية التي تتكامل مع المعايير العلمية يزود الدارس بمادة هامة عن قضاة حضرة تلمسان منذ أبي زكريا يحيى بن محمد بن عصفور ويكشف عن مستوى أحكامهم. فقد وصف أكثر من قاض بنبل أخلاقه عدالة ودينا وفضلا، وقدمت لنا بعض الروايات تفاصيل أكثر. فأبو عبد الله بن أبي عمرو التميمي ظهرت عدالته منذ كان قاضيا على وجدة، ولعل ما أهمله لقضاء الجماعة أيضا نجاحه في الفترة التي قضاها في عقد الشروط والشهادة عهد أبي حمو موسى الأول.

أما أبو عبد الله بن هدية فقد اشتهر فضله ودينه، وكان إلى جانب ذلك: «كبير قطره في عصره نباهة ووجاهة و قوة في الحق وصرامة.. أصيل الرأي مصيب العقل». في حين قام ابنه أبي

علي (بن هدية) بالقضاء "خير قيام" بعد والده، ولم يصل أبو علي الحسيني لقضاء حضرة تلمسان إلا بعد أن استقضى بعدة مدن و«اشتهر فضله وعلو قدره»، وواصل على النهج نفسه حينما استقضى بتلمسان.

-الانتماء لتلمسان: بالنظر لمن تولى قضاة حضرة تلمسان يكشف عن انتماء عدد هام منهم لتلمسان، وذلك منذ عهد يغمراسن .

ووجه الربط بين ممارسته هذه الخطة في المدينة محل الإقامة كون ذلك من الأمور المستحبة فقها، وذلك لسببين الأول: اعتبار العرف "ما جرى به العمل" من العوائد المحكمة شرعا على أكثر من مذهب بما في ذلك المذهب المالكي، والتي تندرج ضمن العناصر التطبيقية في علم القضاء.

السبب الثاني: أن تركية العدول تتم من قبل القاضي الذي يجب أن يكون عارفا بأحوالهم رقبيا عليهم وعلى أعوانه، كما يرجع إليه اختيار النائبين عنه من خلفائه وكتابه، ومعرفة الأوصياء والأمناء ونظار الأوقاف .

-المكانة الأسرية: وتعدّ المكانة الأسرية من الشروط المستحبة لمتولى القضاء، وإذ لم تكن مرتكزا أساسيا فيمن تولى قضاء الحضرة بتلمسان أو لمزاولة أكثر من فرد داخل الأسرة للعمل بخطة القضاء فقد كشفت عن جانب هام من المكانة العلمية والأخلاقية لهؤلاء القضاة ووضعيتهم الاجتماعية من حيث ظروف تنشئتهم.

فقد كان بنو عبد العزيز «من أهل علم وعدالة وقضاء وثقة وأمانة» وظلوا على وجاهتهم وعدالتهم وفضلهم إلى عهد يحيى بن خلدون، وكان جد أبو زكريا يحيى بن محمد بن عصفور فقيها محدثا. أما أبو عبد الله التميمي فقد كان من بيت علم ورياسة. وتولى جده أبو الحسن بتونس قضاء الجماعة وكتابة الإنشاء والعلامة، وقد سبق الحديث عن مكانة والد أبي علي بن هدية.

-التدرج في السلك القضائي: من خلال ما تقدم يلاحظ التزام السلطة الزيانية بنسبة هامة من المعايير التي حددها الفقهاء لتولي خطة القضاء، وقد تجاوز هذا الالتزام في كثير من الشروط الأساسية إلى

الكمالية أو المستحبة.

ولم يكن ذلك كافيا من منظور هذه السلطة، إذ يلاحظ من خلال أكثر من عينة مرور قاضي الحضرة على سلم من الترقيات داخل الجهاز القضائي لبلوغ هذا المنصب، وهو ما يكشف عن وعي السلطة بخطورة هذا المنصب، وبالخبرة التي يكتسبها قاضي الحضرة، وإذا لم يحدد سن لذلك فقد كان للمستوى العلمي والأخلاقي والرصيد الأسري وتقدم السن الذي كان يزيد صاحبه خبرة ويكسبه وقارا- الدور الهام، في تولي قضاء حضرة تلمسان. فقد تولى أبو عبد الله بن أبي عمرو التميمي عقد الشروط والشهادة لدى أبي حمو موسى الأول قبل توليه قضاء الحضرة .

وبالربط بين التكوين الفقهي وكتابة الرسائل لدى سلاطين بني زيان الأوائل مع التمرس في علم الوثائق تدرج أبو عبد الله بن هدية لمنصب قضاء الجماعة، أين حاز على ثقة السلطة الزيانية، أما ابنه أبو علي فقد استفاد من دون شك من خبرة والده، إضافة إلى مؤهلاته لأن يقوم مقامه عقب وفاته مباشرة وكان عند حسن ظن السلطة والمجتمع الزياني، فقد قام بالقضاء "خير قيام" بشهادة أحد معاصريه، ولم يصل أبو علي الحسيني لقضاء حضرة تلمسان، إلا بعد أن تولى القضاء بسواحل تلمسان

لم يكن عمل فقهاء تلمسان في الجهاز القضائي لدى السلطة المرينية فترات الاحتلال المريني عاملا في إقصائهم من ممارسة دورهم في هذا المجال لدى الزيانيين، فقد كان أبو العباس المديوني عدلا سنة (745هـ) "متصدرا لعقد الشروط والسجلات" ومقربا من المجلس العلمي لأبي الحسن المريني وتولى القضاء بتلمسان عهد ابنه أبي عنان، وأرجع لمنصبه بقضاء الحضرة عهد أبي حمو موسى الثاني.

كما تولى أبي عثمان العقباني القضاء بعدة مدن زيانية ومرينية منها بجاية فترة الاحتلال المريني عهد أبي عنان، ولم يمنعه ذلك من تولي قضاء حضرة تلمسان، إضافة لخطط أخرى. وهو ما يكشف عن جانب هام من سياسة أبي حمو موسى الثاني استفادته من سياسة أبي الحسن المريني في استمالة فقهاء البلاط الزياني من خلال أكثر من خطة منها خطة القضاء

هـ-أهمية وخصوصية قضاء الحضرة خلال العصر الزياني:

يعد قاضي الجماعة في من أهم عمال السلك القضائي، نظرا لاتساع سلطاته في الأحكام -القلي

منها الكثير-، واستقلاله بحيث لا يرجع في أحكامه إلى غيره، وله سلطة تنفيذها، إضافة إلى حقه في النظر في كل القضايا الداخلة ضمن اختصاص القضاة الأقل رتبة منه. وقد أخذ قضاء الحضرة خلال الفترة موضوع الدراسة أهمية خاصة في الدولة الزيانية انطلاقاً من عدة مؤشرات.

-تعيين قضاة الحضرة من قبل السلطان: كان تعيين قضاة حضرة تلمسان يتم من قبل السلطان ذاته، بوصفهم من كبار موظفي البلاط وقد حدد أبو حمو موسى الثاني لولي عهده طريقة اختيار قضاة حضرته والشروط العلمية والأخلاقية التي يجب أن يحرص على توفرها فيهم.

-اتساع صلاحيات قضاة الحضرة: فقد عدّ قاضي الحضرة المسؤول الأول بعد الخليفة عن:

-تعيين قضاة الكور واختيار أحوالهم إذا لم يقيم الأمير بذلك.

-الفصل في "أمور الدماء" والأمور العظام" التي لا يحق لباقي القضاة النظر فيها إلا بتفويض من السلطان أو قاضي الحضرة

-تولية أئمة المساجد العظام إذا لم يقيم السلطان بذلك.

-تعيين المؤذنين بالمساجد العام إذا لم يوكل ذلك للأئمة

-الإشراف على مراقبة من يتصدى للتدريس والإفتاء بالمساجد العظام، إذا لم يترك ذلك للأئمة ويتضح ذلك في عقاب قاضي حضرة تلمسان أبو عبد الله بن هدية للفقير المحدث أبي عمران موسى بن بمومن المصمودي المعروف بالبخاري، (كان حياً خلال النصف الأول للقرن الأول للهجرة/الرابع عشر ميلادي) عن الخطأ الذي ارتكبه في إحدى فتاويه تقصيراً منه، ولعل ذلك ما يبرز الرواية التي ذكرها ابن مرزوق الخطيب من أن أبو عبد الله بن هدية كان قاضي الجامع الأعظم والناظر فيه، إضافة إلى كونه خطيبه .

-الإشراف على عقد قران السلاطين والأمراء وكبار رجال البلاط الزياني ووجهاء تلمسان في ظل

غياب المادة التي تتحدث عن قاضي الأنكحة بتلمسان على غرار ما كان قائماً عند الحفصيين وفي فاس

-الإعلان عن بداية شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى المبارك وما يترتب عن رؤية الهلال، في

ظل افتقار الدراسة لمادة متصلة بقضاء الأهلة كما هو الشأن مع الحفصيين

كان التدريس والإفتاء من أكثر الوظائف التي تداولها قضاة الحضرة، وإذا تعذر الوقوف على فتاوى أو على روايات تصف كل من أبو عبد الله بن هدية وأبو علي الحسيني بالمفتين، فقد كان للأول «نفوذ في الأحكام وبصر بالوثائق»، في حين كان أبو علي الحسيني "مشاركاً في الأصول والفروع". إلى جانب ذلك أضيف لثلاثة منهم الخطابة اثنين بالمسجد الأعظم وآخرهم بمسجد أغادير.

ولعلّ ما يعكس هذه المكانة بعمق على المستوى السياسي أن اثنين من القضاة كانوا مشاويرين للسلطان تجسد ذلك في أبي عبد الله بن هدية الذي تولى الكتابة لأبي تاشفين الأول في الفترة ذاتها، وأبو عثمان العقباني الذي كان مشاوراً في عهد أبي حمو موسى الثاني.

أما أبو علي الحسيني فقد «جالس السلاطين في أعلى طبقات الحظوة»، في حين كان أبو العباس المديوني أحد الشهود على السفارة التي تمت بين أبي حمو موسى الثاني وأبي سالم المريني سنة 762هـ.

كما تولى عدد من أفراد قضاة الحضرة العمل في السلك القضائي كقضاة وعدول ومنهم من تولى الكتابة لدى أبي حمو موسى الثاني يشار في ذلك لأسرة ابن عبد العزيز التي سبق التطرق لمكانتها العلمية والأخلاقية. وابن أخ أبو العباس بن المشوش الذي تولى كتابة العلامة والإمامة بأبي حمو موسى الثاني قبل توليه الشهادة على صندوق المال، نظراً لأمانته ولكونه من أسرة ناهجة علماً وصلاحاً

-2- قضاة العمالات والمدن والقرى

يقصد بالعمالة ما يكون من إقليم تحت حكمه، وقد أفادت عدة نصوص زبانية بوجود قضاة بالعمالات والمدن والقرى،

أ- اختصاصات القضاة

باستثناء الفصل في "أمور الدماء والأمور العظام" التي لا يتم فصل باقي القضاة فيها إلا بتفويض من السلطان أو قاضي الحضرة، شملت صلاحيات القاضي مجالات واسعة من حياة الأفراد والمجتمع، وقد تمثلت في:

- فصل المنازعات. إما بتراض أو جبراً.

- إقامة الحدود على مستحقيها وتنقسم الحدود إلى قسمين: ما تعلق منها بالله كترك الصلاة والزكاة

وشرب الخمر وما تعلق بالحدود المرتبطة بالتجاوز في حقوق الأفراد أو المجتمع.

-استيفاء الحقوق لمستحقيها. من ذلك الموارث والوصايا

-القيام بالتصرف في الشؤون المالية لمن وجب إقامة وصي عليه من مجنون أو صغير (يتيم) أو سفيه

وكذا النظر في أحوال الغائبين

-النظر في الأوقاف بالحفاظ عليها ورعايتها في الوجه الذي خصت به من ذلك أوقاف

المساجد، والمدارس والزوايا.

-تولية أئمة ومؤذني المساجد ومراقبة من يجلس بها للتدريس والإفتاء، ومن الأسباب التي تكشف عن

العلاقة ما بين القاضي والمسجد كون هذا الموضوع مركزا رئيسا في مزاوله القاضي لوظيفته، ذلك أنه كان على

القاضي إذا تولى القضاء ببيته أن يكون مسكنه وسط البلد، ورغم ذلك ظل المسجد المكان المفضل لذلك،

لأنه ميسر على جميع الناس وصوله والدخول إليه من ضعيف أو امرأة....

-تصفح شهود القاضي وأعوانه واختيار النائبين عنه من خلفائه وكتابه.

-تفقد أحوال المحبوسين بشكل منتظم بتقديم ما يوهب لهم من صدقة والاجتهاد في خلاصهم، إذا

أمكنه ذلك بإرضاء خصومهم، أو استيفاء ديونهم، أو سماع ما قد يحدث لهم من بينه تسقط عليهم عقوبة

حبسهم.

-توفير الرعاية لأبناء السبيل والفقراء والمساكين من طلبة العلم والأيتام والأرامل وتزويج الأيتام

بالأكفاء إذا دعين للزواج.

ولم نقف على قضاة لأنكحة خلال العصر الزباني مثلما أشار لذلك الونشريسي ضمن "ولاية عقود

الأنكحة والفسوخ" فهل كانت هذه المهمة من اختصاصاته أو أوكلت لشخص آخر من أعوانه .

ب-ملامح القضاة

عند الانتقال للواقع الزباني يطرح سؤال إلى أي مدى قام القضاة بأداء دورهم المنوط بهم؟ وما هي قوة

السلطة التي استندوا إليها في أداء مهامهم؟ مبدئيا يمكن تصور أن قضاة العمالات والمدن كانوا أكثر شأنا

وربما علما من قضاة القرى التي لم تكن في كل الأحوال خاضعة للسلطة الزبانية.

هل يمكن الحديث عن ملامح مشتركة داخل الجهاز القضائي ما بين قضاة الحضرة وقضاة العمالات والمدن، ما يجعل هذا الجهاز أكثر انسجاما والعكس من ذلك؟

لقد كان أبو زيد بن أبي زاع صالحا فاضلا ديننا من كبار بيوت «تلمسان القدامى ومن أهل علم ورياسة وخطط مرعية» ، ورغم ذلك لم يتم تعيينه بالقضاء، إلا بعد أن ثبتت نزاهته وعلمه حينما كان عدلا ولم يأخذ أجره على تدوين الوثائق، وتعززت مكانته لدى السلطة الزيانية بتوليه الخطابة والسفارة عهد أبي تاشفين الأول.

أما أبو محمد المليتي فقد «نزل تلمسان -بعد رحلته العلمية للمشرق- مشهورا بالعلم والدين والورع»، وتولى القضاء بها دون جرایة وأكثر من ذلك أنه زهد فيما يوفره هذا المنصب من امتيازات اجتماعية، فكان يقوم بقضاء حاجاته من السوق بنفسه وكان من صرامته في تطبيق الأحكام أن قتل رجلا حدا حسبما ذكره يحيى بن خلدون فهل كانت هذه العبارة تركية له على تطبيقه لأحكام الشرع؟ أو أن المعاصي الموجبة للحد قتلا قد انقطعت بتلمسان جراء قيام هؤلاء القضاة بوظائفهم على أحسن وجه؟

للتفصيل ينظر

- الماوردي: الأحكام السلطانية
- ابن خلدون: المقدمة
- يحيى بن خلدون: بغية الرواد،
- التنبكتي: الديباج المذهب
- المازوني: المهذب الرائق
- الونشريسي: كتاب الولايات
- الونشريسي : المعيار
- بوزياني الدراجي: نظام الحكم في دولة بني عبد الواد
- صابرة خطيف: الفهاء والسلطة خلال العصر الزياني.

المحاضرة الثالثة

- دور القيروان في حضارة المغرب خلال العصر الوسيط-العلوم الشرعية نموذجاً

يمثل تمصير القيروان سنة 55هـ بواكير التأسيس للحضارة العربية الإسلامية بالمغرب، ويجسد العهد الأغلبي أوج ازدهارها وستعنى هذه الدراسة برصد مسار العلوم الشرعية بالقيروان. باعتبار هذا الحقل الفكري، من أسس الحضارة العربية الإسلامية.

ابتدأت الحياة الفكرية في القيروان بالعلوم الدينية وعلى قمته تعليم القرآن والحديث ثم الفقه والتفسير التي قدم بها صحابة رسول (ص) وتابعوهم. وقد ذكر مؤرخو الطبقات أن إفريقية قد دخلها تسعة وعشرون. أو ثلاثون صحابياً من صحابة رسول الله خلال فترة فتحهم لإفريقيا

ومنهم من شهد بيعة الرضوان وصلى إلى القبلتين، وأن بعضهم مكث في إفريقية وبعضهم عاد بعد انتهاء الغزوة التي قدم فيها، كما يذكرون أن عقبة بن نافع كان معه عندما عاد للمرة الثانية خمسة وعشرون صحابياً، حملوا راية الجهاد والعلم الديني

وكان لهم الأثر الكبير في تأسيس القيروان المركز الفكري للإسلام وما منهم صحابي إلا وقد روى له الدباغ حديثاً عن رسول الله وهذا يدل على أن كلا منهم كان له أثر في وضع بذور الحركة الفكرية في القيروان .

ومن تولى غرس بذور الحياة الفكرية من طبقة التابعين:

أبو عبد الله محمد بن أوس الانصاري الذي اشتهر بالفقه والصلاح مع إحاطته بالرواية والدراية وحش بن عبد الله الصنعاني الذي سكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً وروى عن عدد من الصحابة

منهم علي بن أبي طالب وابن عباس وروى عنه عبد الرحمن بن أنعم وقيس بن الحجاج.

علي بن رباح اللخمي: محدث قدم أفريقية مجاهدا في سبيل الله وكان عند أهل أفريقية من حديثه ما ليس عند المصريين، وقد سكن القيروان واختط بهاد دارا ومسجدا وتفقه أهل القيروان على يديه وكان حسن الموعظة وروى عنه عمر بن العاص وابنه عبد الله وعائشة أم المؤمنين وروى له مسلم في صحيحه وروى عنه ابن موسى والحارث بن يزيد.

وأبو أيوب سليمان بن يسار: محدث المدينة وفتيها الكبير يقال له الإفريقي والمدني قدم إفريقية غازيا وأقام بها وكانت له بها آثار مشهورة ومقامات مندورة ثم رجع إلى المدينة فأقام بها حتى توفي سنة 94هـ روى . عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وغيرهم وروى عنه ابن شهاب وهو أحد الفقهاء السبعة

وأبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس وقد قيل أن أصله من بربر أفريقية وكان كثير الرواية عن مولاه وعليه معتمده، روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وروى عنه خلق كثير وادخله مالك في موطئة وقد وثقه بعضهم وضعفه آخرون ولكنهم اتفقوا جميعا على حفظه ومعرفته بالعلم وتفسير القرآن الكريم وقد دخل أفريقية وأقام بالقيروان حيث كان يجلس في مؤخر المسجد غربي المنارة ليعلم سكان القيروان فبث فيها علما كثيرا وخاصة تفسير القرآن الكريم الذي تلقاه عن مولاه عبد الله بن عباس.

فمن أولئك الصحابة وهؤلاء التابعين وغيرهم تلقى ناشئة العرب المولدون وأبناء المغرب الذين شرح الله صدورهم للإسلام والقرآن الكريم والسنة النبوية والتعاليم الدينية والتمسك بالحق والجهر به.

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وجه عناية خاصة للمغرب عبر بعثة الفقهاء التي أرسلها لنشر الدين الإسلامي والتعليم وكانت تتكون من عشرة فقهاء جمعوا بين سمو الأخلاق والتمكن من علوم الدين، وقد استقروا بالقيروان، ويذكر منهم على سبيل التمثيل

1- إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي:

وهو رئيس بعثة الفقهاء ولاه عمر بن عبد العزيز على أفريقية سنة تسع وتسعين هجرية فحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وفقههم في الدين وعلمهم السنن وسار بينهم بالحق والعدل مما حمل كثيرا من البربر على اعتناق الإسلام وكان مثالا طيبا للزهد والتواضع والتقشف ودعوة البربر إلى الإسلام.

روى عن عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وعن غيرهما من التابعين وروى عنه الأوزاعي بالمشرق
وعبد الرحمن بن زياد وغيره بالقيروان إلى أن توفي بها سنة 132هـ.

-2 إسماعيل بن عبيد الأنصاري: تاجر الله:

تلقى علمه عن جمع من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو عبد الله بن عمرو بن
العاص كما روى عنه من أهل إفريقية عبد الرحمن بن زيادة بن أنعم وبكر بن سودة الجذامي، وكان معروفا
بالفضل والعبادة والنسك والزهد والتقشف وسمى تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه
الخير وإليه تنسب السوق المعروف، بسوق إسماعيل وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان وهو أحد
المساجد السبعة المشهورة بالقيروان الذي يعرف الآن بمسجد الزيتونة وكان يعمره بالتعليم والعبادة وكان أهل
القيروان يجتمعون فيه إذا كان بجامع عقبة في القيروان ترميم وانتقال الجماعة إليه عند توقفها في المسجد
الأعظم جامع عقبة دليل على أن مسجده يعتبر المسجد الثاني بالقيروان وقد انتفع بعمله وخلقه سكان
القيروان وغيرهم. ومع قيامه بالتعليم ونشر الإسلام وتعاليمه وضربه المثل حب العمل بالاشتغال بالتجارة
فقد خرج متطوعا بالجهاد في غزوة عطاء بن رافع إلى صقلية فأشتمشهد غرقا في البحر سنة 107هـ.

-3 عبد الله بن يزيد المعافري المعروف بالحبلي:

روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعقبة بن
عمار الجهني وغيرهم كما روى عنه جماعة منهم يزيد بن عمرو وأبو هاني الخولاني وعامر بن يحيى المعافري
وأدخله المصنفون في كتبهم وكان لجهوده العلمية أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية وانتفع به كثير من أهل
القيروان في التفقه في الدين وكان له طريقة خاصة في الوعظ وذلك بضرب الأمثال التي تقرب المعاني إلى
الأذهان وتضفي صورة مجسمة محسوسة لها أثرها القوي في التأثير مما يؤدي إلى تحقيق الهدف الذي يسعى
إليه.

إفريقية وشهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير واستوطن القيروان واختط بها دارا ومسجدا وكتابا في
ناحية باب تونس وتوفي رحمه الله بعد هذه الجهود العلمية والعسكرية بالقيروان سنة 100هـ ودفن بباب
تونس.

4- عبد الرحمن بن رافع التنوخي:

كان من التابعين الفضلاء يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وجماعة من الصحابة. روى عنه عبد الرحمن بن زياد وغيره وقد ولاه القضاء بالقيروان موسى بن نصير وهو أول من تولى القضاء بها وكان عادلا في أحكامه ثقة في نفسه ولا شك أن ذلك مكنه من نشر كثير من

5- طلق بن جابان الفارسي:

.تابعي فقيه عالم كان يفقه المصريين ثم وجهه عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل القيروان وإذا تأملنا هذه البعثة العلمية التي أرسلت إلى القيروان لنشر العلم والمعرفة فيها نلاحظ أنها تألفت من أبناء المهاجرين والأنصار ومن العرب والعجم فقد جمع بينهم صفة الفقه في الدين والتمسك بتعاليم الإسلام والسهر على نشرها وتعليمها فكانوا الآباء الروحانيين والغارسين للحركة الفكرية في القيروان وأنهم حين استوطنوا القيروان لم يعودوا إلى ديارهم ، بل ضلوا قائمين على ما وهبوا أنفسهم له إلى أن أدركتهم الوفاة وبوجودهم انتشرت المساجد والكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين وشاع تعلم القرآن والحديث والفقه والتفسير واتبع الناس التعاليم والآداب الشرعية وصار الذين يفدون إلى القيروان من البربر لقضاء حاجاتهم أو للاتصال برجال الحكم والإدارة فيها يعودون وقد تشبعوا بمثل عالية ومعلومات واضحة عن أحكام الإسلام ونظمه وآدابه فيصبرون دعاة لقبائلهم علاوة على المرشدين والمعلمين الذين كانوا يقضون بعض الوقت في التعلم والدراسة في القيروان ثم يرجعون إلى بلادهم وقبائلهم حيث يتولون تعليم الناس أصول الإسلام ويقومون بوظائف الدين والقضاء.

:طبقة علماء الشريعة من القيروانيين

حفزت البذور التي أرساها حملة العلم العشرة عددا من أبناء القيروان إلى الرحلة متوجهين إلى المشرق لأجل الاستزادة من علوم الشريعة ثم عادوا ليكونوا الخلفاء لهؤلاء الهداة وسنكتفي بالحديث عن أربعة ممن رحلوا من القيروان إلى المشرق ثم عادوا إلى القيروان ليكونوا امتداد لبعثة الفقهاء خلال فترة حكم الولاة وإيدانا ببزوغ فجر ازدهار الحياة الفكرية في القيروان وهم

1- عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري القاضي:

ولد عبد الرحمن بن زياد بركة والجند داخلون إلى إفريقية سنة 74 هـ من الهجرة وقد بدأ الإسلام يستقر في إفريقية، تلقى العلم عن . عن جميع أعضاء بعثة الفقهاء إلى القيروان وغيرهم من التابعين منهم والده أبيه زياد بن أنعم عن أبي أيوب الأنصاري وبذلك صار من خيرة حملة الحديث ودخل في زمرة العلماء المتقدمين الموصوفين بالزهد والورع والصلاح وأضاف إلى إتقانه للحديث تفننه في علوم العربية والشعر وقد روى عنه من فضلاء أهل المشرق سفيان الثوري وعبد بن لهيعة وعبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك كما سمع منه كبار أصحاب أبي حنيفة. ومن أهل القيروان روى عنه عبد الله بن غانم القاضي، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن أبي حسان وغيرهم. ويذكر الملكي أنه أثناء وجوده بمكة كان الطلبة يأتون إليه ليسمعوا منه وزاره في حلقة سفيان الثوري الذي كان يعظمه ويعرف حقه حيث جرت بينهما مواعظ ومذاكرة.

وقد أهله مكانته العلمية، قوة شخصيته ونزاهة أخلاقه من تولى قضاء القيروان في عهد بني أمية وبني العباس وحسنت سيرته.

2- عبد الله بن فروخ الفارسي:

أبوه من خراسان قدم إلى المغرب وولد له عبد الله بالأندلس سنة 115 هـ، ثم قدم عبد الله إلى القيروان واستوطنها وتلقى فيها العلم ، فكان فقيها ورعا فاضلا يتسم بالتواضع وعدم الهيبة للملوك ولا يخشى إلا الله سبحانه وتعال وكان حافظا للحديث والفقهاء، وقد رحل إلى المشرق في طلب العلم فأخذ عن مالك بن أنس وسفيان الثوري وزكريا ابن زائدة أحد فقهاء التابعين كما حضر على الأعمش (سليمان بن مهران التابعي) وحمل عنه كثيرا من الحديث وقد صحب أبا حنيفة وذاكره وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة يذكر أنها عشرة آلاف مسألة. كما أخذ ابن فروخ عن هشام بن حسان الأسدي من كبار محدثي البصرة.

وكان ابن فروخ مع أخذه عن مالك وغيره من كبار علماء الحديث متحرر الفكر يميل إلى طريقة أهل النظر والاستدلال وقد مال إلى قول أهل العراق إذا تبين له أن الصواب في قولهم و عن ابن فروخ وعن تلاميذه انتشرت آراء أهل العراق في إفريقية وكان هو أول من أظهرها بها.

ويفسفه العلماء بأنه ثقة في حديثه وقد خرج له مسلم في صحيحه، وكان مالك يجله ويوسع له ليجلس إلى جواره عندما زاره في رحلته الثانية للحج ولم ترد مسألة إلى مالك وعبد الله حاضر إلا قال: أجب يا أبا محمد فيجيب. ثم يقول مالك للسائل هو كما قال لك «ثم يلتفت مالك إلى أصحابه فيقول هذا فقيه أهل المغرب. وقد دوام ابن فروخ على صلته بمالك فكان يرسل إليه الأسئلة في المسائل التي يختلف . فيها مع ابن غانم

وبعد أن استزاد ابن فروخ من علماء المشرق السابق ذكرهم عاد إلى القيروان وقام بتعليم الناس العلم وتحديثهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتفع به خلق كثير من أبناء البلاد وكان الناس يتبركون بصحبته ويجلسون له على طريقه إذا خرج من بيته فإذا مشى مشى الناس معه واغتنموا منه دعوة وذكرًا وموعظة حتى الجامع حيث يدخلون ليستفيدوا منه العلم والمعرفة. وكان لا يتقاضى أجرًا على تعليمه إنما يسترزق من مزاول التجارة، وبلغ من ورعه أنه كان يغلق حانوته عندما يأخذ الجند أعطياتهم حتى يذهب في أيديهم. ولم يكن تعظيم الناس له قاصرا على تلاميذه بل كان زملاؤه من العلماء يعظمونه أيضا «فقد .» كان البهلول بن راشد يعظم عبد الله بن فروخ ويكبر قدره ويقلده في بعض ما ينزل به من أمور الديانة

ولم يكن عظم قدر ابن فروخ قاصرا على أهل القيروان وحدها بل كان معروفا كما مر في الكوفة والمدينة ولذلك عندما عزم على الإقامة في مصر وقدم إليها سنة 176هـ بعد موت الليث بن سعد رجا أهل مصر أن يكون خلفا عن الليث بن سعد إلا أن منيته أدركته فكان لوفاته فجعة عظيمة في قلوب أهل العلم . وقالوا طمعنا أن يكون خلفا عن الليث تعظيما له وتقديرا لإمامته

3- البهلول بن راشد الرعيني الفقيه الزاهد

ولد سنة 128هـ بالقيروان واشتهر بالعبادة والتقوى والصلاح والتمسك بالسنة والفقہ في الدين . وكان ثقة مجتهدا ورعا

وقد تلقى العلم أولا بافريقية من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وموسى بن علي بن رباح، وعلي بن زياد بن أنعم وموسى بن علي بن رباح وعلي بن زياد ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك والثوري والليث . بن سعد والحارث بن نبهان ويونس بن يزيد وحنظلة بن أبي سفيان القرشي الجمحي بمكة

4-عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني القاضي:

ولد 128هـ تلقى ثقافته الأولى بالقيروان فسمع من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وخالد بن أبي عمران ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم فدخل الحجاز والشام والعراق وسمع من مالك وعليه اعتماده كما روى عن سفيان الثوري وعن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة وإسرائيل بن يونس الكوفي وداود بن قيس وعثمان بن الضحاك المدني وغيرهم وكان ثبنا فقيها مع فصاحة لسان وحسن بيان وبصر بالعربية ورواية للشعر وقد . وعرف بتقديره وتواضعه لعلماء عصره. تولى قضاء القيروان سنة 171هـ فكان دقيقا وعادلا في قضاائه

وكان ابن غانم متنبئا في قضاائه فإذا عرض له من نوازل الخصوم ما لا يظهر له وجه الصواب فيه أرسل إلى مالك في هذه المسائل وكان يكتب أيضا إلى أبي يوسف يستشيره في قضاائه كما كان يستشيره ابن فروخ

ما يمكن استخلاصه أن علماء من هذه الطبقة قد استفادوا من جهود أسلافهم ، وأصروا على الرحلة للمشرق لتلقي العلوم من منابعها الأصلية وإن كان الحضور البارز قد تحقق للفقهاء المالكي فالحضور الحنفي والشافعي لم يكن غائبا ما يدل على سعة أفق علماء القيروان وتفتحهم وسيثمر جهود العلماء السابق ذكرهم وبفضل عوامل أخرى في ظل السلطة الأغلبية بازدهار الحركة الفكرية بالقيروان وانفتاحها على علوم العصر

للتفصيل ينظر

المالكي :رياض النفوس

الدباغ: معالم الإيمان

عياض : ترتيب المدارك

المحاضرة الرابعة

المدارس خلال العصر الوسيط

المحاضرة الرابعة

المدارس خلال العصر الوسيط

تعد المدارس من أبرز المؤسسات التعليمية في الحضارة العربية إلى جانب المسجد، وهي مؤسسة إقاميه توفر للطالب التفرغ لطلب العلم مجاناً، مع تأمين مأكله ولباسه، وطبعا المسكن، الذي يكون من مرافق المدرسة.

وتنسب أولى المدارس لمدينة نيسابور(النصف الأول من القرن الخامس) قام ببنائها أهل نيسابور بحيث شيدت كل واحدة منها لفقيه من فقهاء الشافعية العظام، كمدرسة كأبي إسحاق الإسفراييني المتوفى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة.

تحولت هذه المبادرة الشعبية في انشاء المدارس إلى الطابع الرسمي حينما شيد الوزير السلجوقي نظام الملك "المدرسة النظامية المدرسة النظامية" ببغداد سنة 459هـ ، وقد أنشئت لتدريس الفقه الشافعي وشرط الواقف أن يكون المدرس بها والواعظ ومتولى الكتب من الشافعية أصلا وفرع

وكان نظام الملك قد أمر بإنشاء عدة مدارس في العالم الإسلامي أصبحت نموذجا للمدارس الجديدة، وقد خصص أجورا للمدرسين وكل العاملين في مدارسه كما تكفل بإعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم،

وكان الدافع من تأسيس المدارس النظامية مذهبيا وسياسيا، فقد كان نظام الملك شافعيًا أشعريًا حريصًا على مذهبه، وعاصرت نظام الملك آراء وأفكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي . كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل

ولما كانت المدارس الحكومية هي في الحقيقة امتداد لحركة التعليم في المساجد فقد كان التعليم في بداية في مدراس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية، واعتقد أن هذا إنما كان استجابة لروح العصر الذي شيدت لأجله المدرسة النظامية، وقد اعتمدت النظامية في تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعي واهتمت بتدريس القرآن والحديث والأدب واللغة، ثم أخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم وأخذت العلوم الرياضية طريقها إلى هذه المدرسة

كانت بعض المدارس تقدم دروس الوعظ، إلى جانب التدريس النظامي، وقدم لنا ابن جبير صورة واضحة عن ذلك كيفية التدريس في النظامية، فإن ابن جبير أعطانا صورة واضحة لها حين زار المدرسة أواخر القرن السادس الهجري وحضر مجلس وعظ في الخامس من صفر سنة 580هـ ووصف مجالس العلماء أنها مجالس علم ووعظ، وقال عنهم أن لهم طريقة مباركة ملتزمة، وكان التدريس مرتبطا على الأكثر بأوقات الصلاة، خاصة بعد صلاة العصر، بعد أن يتفرغ أكثر الناس من أعمالهم، -أقصد هنا دروس الوعظ لعامة الناس-، يقول ابن جبير: «وأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقه النظامية والمشار إليه بالتقدم في العلوم الأصولية، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة أثر الصلاة من يوم الجمعة

. كان المدرس يجلس على مكان عال وهو متطيلس (أي يرتدى الطيلسان) والطريقة المتبعة أن الطلاب يجلسون أمامه على شكل نصف حلقة، ويبدأ الطلاب بالقراءة، ثم يبدأ الشيخ بتفسير الدرس "ويتصرف في أفانين العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وإبراد حديث رسوله عليه الصلاة والسلام والتكلم على معانية."

أما هيئة التدريس في المدرسة النظامية فكانت تتكون من المدرسين والمعيدين، ويحدد القلقشندي وظيفة المدرس بأنه الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو التصريف ونحو ذلك، وكان تعيين المدرس في أول تأسيس النظامية من صلاحية الوزير نظام الملك كما كان

ذلك عندما عين نظام الملك، أبا أسحق الشيرازي للتدريس في نظامية بغداد وبعده الإمام الغزالي للتدريس في المدرسة.

أما وظيفة المعيد، فقد كانت مرتبطة بوظيفة المدرس بعد تأسيس النظامية، وقد كانت محفزا لطلبة النظامية بحيث جعلت الطلبة في المدرسة النظامية يتنافسون أجل الحصول على الدرجات العلمية الممتازة التي تؤهلهم لوظيفة المعيد، وهذا بالطبع سيؤدي إلى رفع المستوى العلمي وهناك أسماء كثيرة من الذين كانوا طلبة في النظامية عينوا معيدين لقدراتهم العلمية الممتازة.

وإذا ما أثبت المعيد جدارة وأهلية وأصالة بحث رقى إلى درجة مدرس وهذا عامل آخر مهم ساعد على تركيز الدراسات وتعميقها كما عمل على تطوير العلوم الإسلامية كافة.

وقد انتقل بناء المدارس للمغرب خلال القرن السابع ، و وإذا تعددت المواد المدرسة فقد غلب عليها الطابع الديني والفقهية المالكي على وجه الخصوص . تعددت المدارس بالمدينة ذاتها، تبعا لمركزها السياسي على وجه التحديد

وتعددت المدارس في العالم الإسلامي وتنوعت في دراساتها وتخصصاتها كما هو الشأن مع المدرسة المستنصرية التي أنشئت في أواخر الدولة العباسية ببغداد بأمر من الخليفة المستنصر بالله العباسي وافتتحت للتدريس في سنة 630 هـ، وهذه المدرسة أهمية خاصة لأنها تعتبر خطوة جديدة في تطور تاريخ المدارس في العالم الإسلامي لسببين:

الأول كونها أول مدرسة عرفها العالم الإسلامي تشيد لتدريس المذاهب الأربعة، ما ساهم في توحيد جهود علماء السنة في مسار موحد ضد التيار الشيعي على وجه الخصوص.

والثاني كونها أول بادرة في تبني السلطة لتدريس العلوم العقلية على نطاق واسع ، فقد ألحق الخليفة بمدرسته أربعة معاهد: واحد لتدريس القرآن وآخر للحديث النبوي الشريف ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة .

كانت المكتبة ركيزة أساسية في أداء المدرسة المستنصرية، بحيث زودت بالكثير من الكتب منها النفيس ، وكانت الكتب تبوب وترتب حسب فنونها ليسهل على المطالعين تناولها وإذا أراد أحدهم نسخ

بعض مخطوطاتها فإن الموظفين كانوا يمدونه بما يحتاج إليه من الأقلام والورق، وكان للمكتبة خازن ومشرق ومناول

ومما لا شك فيه أن المدارس الإسلامية في أول نشأتها بذلت عناية فائقة في دراسة العلوم الدينية ، ثم الأدبية والعلمية، قد قامت بتخريج أعداد كبيرة من الطلاب الذين انتشروا في العالم الإسلامي، وساهموا في بناء الفكر الإسلامي والسماح لفئة عريضة من عامة الرعية، ممن افتقدوا للأسباب المعينة على طلب العلم للارتقاء إلى قمة الهرم الاجتماعي تبعاً لما بلغوه من مكانة علمية ، ومن كانوا دون ذلك فقد فتح لهم باب رزق كريم، ذلك أن طلبة هذه المدارس عادة ما كانوا يحظون بوظائف في الدولة التي كانوا من صنعها .

ولعل ذلك من الأسباب التي جعلت بعض العلماء ينتقد التعليم الرسمي لأنه يحول طالب العلم من راغب في العلم لذاته، إلى طالب لعرض الدنيا بما يقدمه له التعليم في المدارس من فرص في الوظائف السلطانية

إن أبنية بعض المدارس الإسلامية كانت تكشف عن حيز هام في المعمار الإسلامي، وكانت المدرسة المستنصرية نموذجاً في ذلك رغم أن تأسيسها تم في نهاية العصر العباسي . لقد وصفت هذه المدرسة بأنها آية في الجمال من حيث تصميمها والزخارف المحتوية عليها ، وقد سمحت المواد التي بنيت بها هذه المدرسة بأن تبقى على حالها إلى القرن العشرين.

للتفصيل ينظر:

ابن خلكان وفيات الأعيان

ابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية

المقريزي: الخطط السلطانية

ابن الجوزي: المنتظم

حاجي خليفة: كشف الضنون

ابن جبير: الرحلة

ياقوت الحموي: معجم الأدياء

القلقشندي: صبح الأعشى

ابن الأثير: الكامل

ابن خلدون: بغية الرواد

الشماع: الأدلة النورانية

ابن مرزوق: المسند

ابن أبي زرع: روض القرطاس